الشعر والثقافة

لعبد الرحمن شكري

وقد ظهر أثر ثقافة جويتي ومذهبه في قصائد عديدة مثل قصيدة (التجدد في حياة الأمم) ومنها في مذهب التجدد بالثقافة : —

حياة الناس إما ماء نهر تصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير قذاه ويأجن الماء الطهور

ومثل قصيدة (الايمان والقضاء) ومنها :

سكنات الايمان برد من الحز ن ومأوى لهارب من قضاء
يلج النفس بالثبات وبالعز م ويطوى جوانب الضراء

ومثل قصيدة (الحياة والعبادة) ومنها :

أكذب الدين ما يقيم قوى النفـ ـس كما يحرس الرياح الركودُ
انما الدينُ ان يجدَّ مجدٌّ أعمل السعيَ او يجيدَ مجيدُ

وقصيدة (القلق والفضلة) ومنها :

إنَّ حتماً على القضاء سقاهُ غاب عنهُ مطالع النعماء

وقصيدة (الحياة والعمل) ومنها :

والعيش سر أنت باحثه فعسى تجوب مجاهل السُّبُل
والنجحُ ليس بخير مكتسبٍ كم نجحة شر من الفشل

وقصيدة (الباحث) الطويلة وهي تقديس لبحث الثقافة والعمل في الحياة وهي من أثر جويتي من الناحية الثقافية ومن اثر شلي من ناحية الطموح الى المثل العليا ومنها : —

أنشد الحق بالتقلب في العيـ ـش وأبغي مرارة الأشياء

والانسان الخيالي الموصوف في القصيدة بانهُ قد خلّدهُ البحث فيه التفات ايضاً الى فكرة اليهودي التائه المحروم من الموت عقاباً. ومن القصائد التي دعت اليها الثقافة ايضاً قصيدة (الامل)

الطويلة و (المجاهد الجريح) و (الانسان والكون) و (الانسان والزمن) التي مطلعها : —

حيوانٌ مُهَذَّبٌ ام آلهٌ مُعَذَّبُ

وقصيدة (قوة الفكر) وقد نشرت الاخيرة في المقطم ولعل قصيدة (الأمل) من أحسن ما كتبتُ من الشعر

(٣) والمصدر الثالث لثقافتي الجديدة كان المصدر الجامعي وكنا ندرس التاريخ والجغرافية والاقتصاد والنظريات السياسية ونُعلَّم الحكم وقد درست فيها درست تاريخ الأغريق والرومان وآدابهم وحياتهم وتاريخ تنورهم في طبعة بوهن وغيرها وكان لهذه الدراسة اثر فيما نلت شعراً ونثراً . فمن قصائد هذه الثقافة قصيدة (الجمال والعبادة) وفيها وصف عبادة الاغريق القدماء للجمال في مظاهره المختلفة مما ادى الى تخليف آثار جميلة من المعابد والتماثيل ومن هذه القصيدة

كم أُمَّةٍ احكمت بالحسن دولتها فَخَلَّفَتْهُ وأودى مجدُها الفاني
تلك التماثيل ام هذي المعابد أم تلك الفنون عليها خير عنوان
يارُبَّ مَرْأى لنا منها ورُبَّ مُنىً فيها وحسن قديم العهد (يوناني)
لم يحبس المرء عن آماله فَرَقٌ منها ولم يَثْنِهِ عن عزمه ثاني
لم يُنزَرِ بالحق حبُّ الحسن بينهمُ فالحقُّ والحسنُ إن فكرت سيَّان(١)

ومن مظاهر هذه الثقافة قصيدة (ام إسبرطية) تتلت ابنها لحثه عن الدفاع عن إسبرطة وطنه وقصيدة (الحسن والآمال النبيلة) وفيها تتمنى النفس تصوير مُثُلِها العليا في شكل تماثيل كتماثيل الاغريق القدماء . وقصيدة (ايكاروس) العبد الروماني في وصف اثر معاملة الرومان للعبيد في النفوس وقد كان لدراسة الفنون الاغريقية وعبادتهم(٢) للجمال اثر في النفس جعلني اعد الجمال ثقافة وان افهم قول الاديب ولعله رتشارد ستيل : (إنَّ رؤيتها كانت ثقافةً سخيَّةً) . ومن اثر دراسة خرافات الاغريق قصيدة (ليتني كنتُ إلهاً) والذي يقرأ القصيدة يرى فيها اثر لوسيان الساخر الاغريقي (طبعة بوهن) كما يرى فيها اثر هيني الساخر الالماني ولكن الذي يقصر معناها على اثر الخرافات الاغريقية ولوسيان وهيني يخطىء خطأً كبيراً فان مغزاها الحقيقي بالرغم من اطراء الفنون هو مغزى قصيدة (قصر الفن) للشاعر الانكليزي تنيسون والمغزى هو ان قصر أحاسيس النفس على لذات الفنون ، قد يجلب الضرر والفساد كما يُقرأ في الجزء الاخير من القصيدة . ومن أثر دراسة تاريخ الفنون الاغريقية أيضاً قصيدة (الحياة والفنون) ومنها :

من عَلَّمَ المرء في بدايته صُنعَ مفيد الآلات والقُضُب

---

(١) هذا البيت في الشطر الثاني منه معنى قول للشاعر كيتس الانكليزي
(٢) لم يكن الفنون من الاغريق يعبدون التماثيل والمراد بعبادتهم للجمال شدة الاعجاب بالفنون

من علَّمَ المرء ان يقيم على ال أرض بيتاً مرفوعة الطنب
من علَّمَ المرء ان ينال من الـ ـزمار والصنج لذة الطرب
يحكي بها ضربه مغازلة الـ ـعاشق ليناً وسورة الغضب
يحكي بها الجد إذ يجد به الـ ـدهر وطوراً كرقصة اللعب
من علَّمَ المرء ان يخط على الـ ـقرطاس لوناً من أعجب العجب
يحكي به الضوء والدياجير وال أجسام من ناضر ومن شجب
كأنما يقبس الضياء من الـ ـشمس ويأتي بظلمة السحب

الخ الخ — ومن آثر دراسة الخرافات الاغريقية ايضاً قصيدة (نرجس) وهي النشودة في موضوع يُشبهُ قصة نرسيس المعروفة في خرافات الاغريق بعد تحوير في المعنى ونصها :—

نرجسٌ أنت الحسن يا نرجسُ تشتاقك الابصار والأنفس
تحنو على الغدران مستأنساً يا زهرة في روضها تُغرس
تبصر وجه الحسن في ملئها بحسنه كل امرىء يأنس
حتى اذا البدر بدا ضوءه يزينه في ثوبه الاخندس
أفقت في جسم كجسم الدُّمى يُلتذُّ منهُ الشم واللمس
كالدر من أصدافه خارجاً والدر في اصدافه يحرس
نرجس أنت الحسن يا نرجس يحبس منك الطرف ما يقبس الخ الخ

(٤) و (٥) والمصدران الرابع والخامس من مصادر ثقافتي الجديدة كانا في دراسة آداب اللغات الاوربية الحديثة انكليزية او منقولة الى اللغة الانكليزية. فمنها دراسة الادباء الساخرين امثال هيني وفولتير وسويفت وانا تول فرانس واخيراً سمرست موام. ومنها دراسة الادباء الذين اشتهروا بتحليل النفس اما في قصص طويلة أو قصيرة مثل دكنز وثاكري وتولستوي وتورجنيف ودستو يفسكي وميرجكوفسكي ومثل بالزاك وفلوبيرت وموباسان وبرودست وكونراد وغيرهم. واصحاب النظرات في كلمات موجزة مثل لارشفوكولد ولابرويير. واذا مدين لهؤلاء ولكثيرين غيرهم ولا استطيع احصاء كل أثر لهم لأن اكثر تأثري بهم كان عن غير قصد ولكني اذكر على سبيل الامثلة ان قصيدة (الحق والحسن) التي نشرت في المقتطف كانت تعبيراً عن الصراع العنيف الذي قاساه تولستوي بين نشدان الجمال الفني والحقيقة الروحية والذي دعاه الى رفض كثير من مظاهر الفنون والآداب في كتاب (الفن) الذي الفهُ. وقصيدة (حواء الخالدة) التي نشرت في المقتطف ايضاً بعثني الى نظمها إعجابي بوصف جوزف كونراد لسحر امرأة في قصته (السهم الذهبي) وفيها يتخيل انها جمعت في شخصها سحر النساء

جميعاً قديماً وحديثاً. وقصيدة (عجز التجارب) التي نشرت في الرسالة مؤسسة على فكرة عرضت لبروست وغيره من القصصيين وهي أن الخبرة والعرفان اللذين يكتسبان بالتجارب تنفيان يتغلبان على طباع الانسان . وقلما ترى قصيدة ليس فيها أثر لاكثر من مفكر فقصيدة (تيه الماضي) التي نشرت في المقتطف ايضاً بها بواعث من ادباء عديدين فالمطلع وهو

اخذنا عن الماضي قليلاً من النهى واكثر ما نقنا الهواجس في النفس

مؤسس على مبدأ من مبادىء فلسفة الفيلسوف برجسون الفرنسي والبيت الثاني والثالث والرابع تلخيص لصفات النفوس التي وصفها الكاتب فردريك بروكوش [1] في قصة السبعة الذين هربوا والبيت

بناء المعالي كان بالشر قائماً وما طربوا إلاّ الى لغم النحس

دعت اليه دواع عديدة فمنها ماكان من قراءة قول محمد بن هاني الاندلسي

ولم يتجمّع لامرء كان قبله بناء المعالي واجتناب المآثم

ومنها ماكان من أثر قراءة قصة (الدير) لاناتول فرانس وفيها يصف انساناً ذهب الى الدير وتجنب حتى فعل الخير وعمل الخير لأنهُ وجد انهما كثيراً ما يعثان الناس الى عمل الشر. ومن فكاهات اناتول فرانس أنهُ قال لذلك الانسان ساخراً (لكن ألا تخشى أن يتخذ الناس انقطاعك عن الاقوال والاعمال (حتى ماكان منها خيراً) عقيدة يقتلون بسببها فيرتكبون الشر الذي حاولت ان لا يرتكبه أحد بسبب فعلك أو قولك). ومن دواعي نظم البيت ايضاً وصف الدكتور هافيلوك ايلس في كتاب (رقصة الحياة) لما يخالط معالي الحضارات ويجدها من شرور ودعا اليه ايضاً وصف جورج مور في كتابه (اعترافات شاب) كيف أن جلائل الاعمال الفنية قد مكّن من صنعها ارتكاب الشرور في الحضارات المختلفة. والبيت الاخير مثلاً وهو

يقولون ان الحق في النفس قوة وأقوى من الحق الجهالة في النفس

قد يمت على نظمه قول شيلر الشاعر الالماني ويعني آلهة خرافات الاغريق : (عبثاً تحاول الآلهة ان تقضي على قوة الجهل والغباء)

فقد كان من أثر دراسة ادباء السخر أو التحليل نظم قصائد في السخر والتحليل منها (سمار الغرور) و (حلم بالبعث) [2] و (خساسة النفوس) و (سجن الفضيلة) و (قرد النهى) و(جد أم لعب) و (اختفاء الحق) و (وصف الطباع) و (مظاهر الصداقة والعداوة)

(١) في القصص الروسية ايضاً نفوس تشبه هذه النفوس، والظاهر ان بروكوش متأثر بدراسته الادب الروسي أو مزاجه مثل مزاج الكتاب الروس

(٢) أوضحنا ان المقصد من قصيدة (حلم بالبعث) نسبة ماكانوا عليه في الحياة من الكآبة والتراحم والتقاتل اليهم هي سخر بعيوب الانسانية

و (النحات) و (آلة الصبر) و (درج الحياة) و (صديق البلاء) و (مرآة الضمائر) و (صلع الدهر) و (قوام بادوا) و (عيد الحياة) الخ الخ .

وقد بقي معي أثر بيرون وشلي فقصيدة (الزوج الغادرة) هي (ميلو دراما أو دراما) على نمط قصص بيرون و (لسان الغيب) و (الشاعر وصورة الكمال) من أثر شلي . وقد غالى بعض الكتاب في أثر من سموهم الشعراء الطبيعيين وكانوا يرفضون الطبيعة ويريدون تجميلها بالفنون فهي نسبة غير صحيحة . وأعني أثر سوينبورن وبودلير وروزيتي وادسكاروايلد وأمثالهم . وقد كان يكون غريباً بعد ما شرحت من أسباب تنوع جوانب الثقافة في شعري أن لا يكون لهؤلاء أثر . ولكن قصيدة (بين الحب والبغض) لم تكن من أثر سوينبورن بل هي دراسة سيكولوجية دعا اليها قول جميل ابن معمر (رمى الله في عيني بثينة بالقذى) . وقصيدة (سلوان الجنون) هي أيضاً دراسة سيكولوجية دعت اليها ابيات في كتاب (مصارع العشاق) تبدأ بكلمة (عسى) كما في قصيدتي وقصيدة (الازاهير السود) ليست من أثر دراسة (ازاهير الشر) لبودلير ولكنها الشودة قيلت على لسان النساء وما بها من التشبيهات والاستعارات لها أشباه ونظائر في الشعر العربي . وقصيدة (الازاهير السود) قد عدها ناقد من الطريقة الرمزية وهي ليست كذلك واذا كان بها أثر لبودلير فليس من العقل أن يحتكر بودلير وصف الشقاء . ولا انكر أن في بعض شعر بودلير قوة عظيمة وخيالاً قويًّا ولكنهُ محدود الثقافة متشابه النتاج ولا يصف الا جانباً واحداً من جوانب الحياة والنفوس وقد منعني من أن اتوغل في هذه المذاهب أو ان اقصر قولي عليها أولاً تأثري بمبدأ الثقافة العامة في قول جويتي وقدوتي وثانياً اطلاعي على نقد ماكس نوردو لهذه المذاهب ومن أجل ذلك قلما اعرض في قصيدة جانباً من الاحاسيس أو المشاهد الا واعرض ما هو ضده طلباً للاتزان الفكري ففي قصيدة (الفناء في الحياة والموت) ابيات في وصف متاع الموت ربما كانت شبيهة بمذهب سوينبورن أو بودلير ولكن بها عكس ذلك في مثل هذه الأبيات : —

بعد أنْ كُنَّ لعيون جلاء فاتناتٍ بأعين وخدود
مالئات وجه الحياة ضياء عابثاتٍ بمعدات الجدود
هز منها الهوى ثمار صباها هزَّة الريح زهرة الاملود

وأما قصيدة (صوت الموتى) فهي وصف لأثر قطعة موسيقية في هذا المعنى . وفي قصيدة (الملك الثائر) بعد اقوال الملك في تورته أوردُ ما يجعل النفس تطمئن الى الحياة طلباً للاتزان الفني كما ذكرت وكما في قصيدة (سر الحياة) و (بين الحب والبغض)

(٦) والمصدر السادس وهو الاول الذي بدأت به المقال السابق والأخير الذي اختم

به هذا المقال هو ثقافة الادب العربي والشعر العربي . ومن اطلع على مقالاتي في نقد شعراء العرب والشعر العربي يعرف اني لم اقصّر في اجتناء هذه الثقافة التي بدأتها وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية ولن انتهي منها في الحياة. وقد ذكرت شواهد عديدة من شعري تدل على أن اطلاعي على الادب الاوروبي لم يصرفني عن الاسلوب والشعر العربي. وفي كل عام اكتب مجموعة جديدة من الشعر العربي. وقد كنت جمعت من شعر العذريين وغيرهم بعد عودتي من انكلترا مجموعة سميتها ذخيرة الذهب في المنتخب من شعر العرب وكانت تغلب عليها النزعة العذرية وهي سبب ظهور تلك النزعة في الجزء الثالث من شعري . ولم استطع ان أحصي في هذا المقال كل من تأثرتهم من الشعراء والكتاب والقصصيين والمفكرين والفلاسفة والنقاد من عرب وأفرنج واذا كنت قد عبرت عن جانب التشاؤم فقد عبّرتُ عن جانب التفاؤل في قصائد عديدة . وكان بعض التشاؤم استحثاثاً للهمم كما في قصيدة (شهداء الانسانية) التي اتخيل فيها شهداء الانسانية على باب الحياة يتساءلون هل ضحوا بحياتهم وسعادتهم عبثاً ام تحققت احلامهم وزالت الشقاوة والشر والظلم . وفي قصيدة (الموت) جعلت الموت نفسه مظهراً من مظاهر الامل وباعثاً لهُ وفي قصيدة الامل الطويلة وصفت آثاره في النفس والحياة ومظاهره المختلفة وجعلت حتى إخلافه سعادة وهي التي مطلعها : —

(ألا عِدْ وأخلفْ أنت بالوعد مانح)

ولا يوضح الفرق بين مذهبي في الثقافة الشعرية ومذهب بودلير شيء اكثر من مقابلة قطعة له قصيرة عنوانها الناثر (في كتاب أغاني أوربا) طبعة كانتربوري بقصيدة لي طويلة عنوانها (الملك الناثر) فقطعة بودلير فكرة واحدة — وكثيراً ما يكون بودلير من أصحاب الفكرة الواحدة الملحة المتغلبة على النفس — وهي ان انساناً أبى ان يحب النساء والنساء تجاهد لملك وامسك برقبته من الخلف وأراد ان يرغمه بالقوة على ان يحب النساء والنساء تضرب الرجل الارض بقدميه وقال لا أفعل ذلك ما دمت حيًّا . فاذا وجد قارىء اكثر من هذا المعنى في قطعة بودلير فليذكره . اما قصيدتي (الملك الناثر) فهي قصة ملك أخذتهُ الشفقة على الانسانية فأبى عيشة النعيم الأبدي والسعادة الخالدة وكال الملائكة وهبط الى الارض كي يرد الناس عن شرهم وليجلب لهم السعادة وليزيل عنهم التعس فاضطهدوه وصلبوه وهتف هاتف من السماء بحكمة الله في استخراج الخير والرحمة والفضائل كلها من الشر الذي يقع في الحياة وهذا الختام في القصيدة مظهر من مظاهر الاتزان الفني الذي أشرت اليه وقلت اني التمستهُ بالثقافة في الشعر وربما كان من تمام الدلالة على تلك الثقافة ان أخصص مقالاً لما طالعته من صنوف النسيب والتشبيب ومصادر الثقافة فيها